« كذلك » في القرآن الكريم

الأستاذ أحمد أحمد بدوى

وردت « كذلك » في القرآن الكريم ، في أكثر من مائة موضع . ولوجود الكاف ، وهي للتشبيه ، فيها ظن كثير من العلماء أنها لا تكون إلا للتشبيه ومضى في كل آية وردت فيها هذا التعبير ، يبين التشبيه في الجملة ، وفي كثير من الأحيان لا يبدو معنى التشبيه واضحا ، فيتلمس مقوماته ، ويتكلف تفسيره تكلفا . يوحي بضآلة هذا التشبيه ، وأنه لم يزد المعنى جلاء ، وهو الغرض الأول من التشبيه .

وقد تتبعت هذه العبارة فيما وردت فيه من الآيات ، فوجدتها أكثر ما تأتي لمعان ثلاثة :

أولها التشبيه ، وذلك عندما يراد عقد الصلة بين أمرين ولمح ما بينهما من ارتباط ، وهنا يؤدي التشبيه رسالته في إيضاح المعنى وتوطيده في النفس ، نجد ذلك في قوله تعالى : « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » ؛ فالصلة وثيقة بين بعث الحياة في الموتى ، وبين بعث الحياة في الأرض الميتة ، فتنبت من كل الثمرات . وإن فيما نراه بأعيننا من هذه الظاهرة الطبيعية التي نشاهدها في كل حين ، إذ نرى أرضا ميتة لا حياة فيها ، ثم لا يلبث السحاب الثقال أن يفرغ عليها مطره ، فلا تلبث أن تزدهر ، وتخرج من كل زوج بهيج — إن في ذلك لما يبعث في النفس الاطمئنان إلى فكرة البعث ، والايمان بها ، فلا جرم انعقد التشبيه بين البعثين ، وزاد التشبيه الفكرة جلاء .

واقرأ قوله تعالى : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا : إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون » ، أرأيت أصحاب هذه الجنة وقد أقسموا أن يستأثروا بثمر جنتهم ، وأن يجنوا ثمارها مبكرين في الصباح ، ولم يدر بخلدهم الاستعانة بالله في عملهم ، وبينما هم يستعجلون قدوم الصباح ، ويحلمون بالثروة التي ستدرها عليهم حديقتهم ، طاف على تلك الجنة طائف أباد ثمرها وهم نائمون ، وفي بكرة الصباح أسرع بعضهم ينادي بعضا أن الخير في البكور ، فانطلقوا لا تكاد تسمع لأقدامهم رنينا ، يتهامسون وهم يعمدون ، كي لا يسمع مسكين صوتهم فيتبعهم ، ولقد وصلوا إلى حديقتهم ، وأطمأنوا إلى أنهم سيقدرون على إحراز غلتهم . ومنع المساكين منها ، فإذا بهم إلا أن وجدوا أشجارهم بلا ثمار ، وجنتهم جرداء مقفرة ؛ هنالك ملأ الندم قلوبهم ، وأخذ بعضهم يلوم بعضا ، يتحسرون على أمل قد ضاع ، وعلى ما اقترفوه من ظلم وطغيان . أرأيت هذا العذاب الذي صار إليه هؤلاء القوم ، عذاب من فقد أمله ، وقد كان قريبا من يده ، وعذاب من يؤنبه ضميره على جرم اقترفه ، وقد رأى جزاءه أمام عينيه . ألا ترى أن هذا العذاب النفسي الأليم جدير بأن يكون مثلا ينذر به الله كل من يتصرف تصرف أصحاب هذه الجنة .

وهي أيضا للتشبيه في قوله سبحانه : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ؛ تبتغون عرض الحياة الدنيا ، كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم ، فتبينوا » ، وقوله تعالى : قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » وما على نسق هذه الآيات ، مما تعقد فيه الكاف صلة بين أمرين .

وتأتي كاف « كذلك » في كثير من الآيات بمعنى مثل ، في قولك : مثلك لا يكذب ، تريد : أنت لا تكذب ، وفائدة مجيء مثل الاشارة إلى أن من له صفاتك لا يليق به أن يكذب . نجد ذلك في مثل قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم ، كمثل جنة بربوة ، أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير ، أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ، تجري من تحتها الأنهار ، وله فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار ، فاحترقت ؛ كذلك يبين الله لكم الآيات ، لعلكم تتفكرون » ،

فالمعنى على أن الله يبين الآيات ، ذلك البيان الجلى الواضح المؤثر ، لعله يثمر ثمرته ، فيدعو سامعيه إلى التفكير والتدبير ، ذلك هو ما أفهمه من هذا التعبير ، ولا أفهم أنه يريد أن يبين آيات غير هذه الآيات ، بيانا يشبه بيان الآيات السالفة ، وإذا أنت حاولت عقد التشبيه على حقيقته ، رأيت فيه تفاهة وقلة غناء . وخذ قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا ، واستكبروا عنها ، لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين » ، فليس المراد — على ما يظهر لى — أن المجرمين يجزون جزاء يشبه الجزاء الموصوف فى الآية الكريمة ، وإنما يجزون هذا الجزاء نفسه ، من غلق أبواب السماء فى وجوههم وأنهم لا يدخلون الجنة أبدا . واقرأ قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » ، ترى المراد أن الله يطبع على قلوب الكافرين ، ذلك الطبع الذى يحول بينهم وبين الايمان بما كذبوا من قبل . وإذا أنت حاولت عقد تشبيه ، لم تجد فيه كبير غناء ، إذ يصير المعنى ، يطبع الله على قلوب الكافرين طبعا يشبه طبعه على قلوب الكافرين وفى ذلك ما فيه من ضياع قيمة التشبيه .

فمن هذا يبدو أن التشبيه فى هذه الآيات وأمثالها غير ملحوظ ، وإنما يراد توجيه النظر إلى ما سبق هذه الأداة فحسب . وتأتى الكاف حينئذ إشارة إلى أن ما ذكر فى الآيات وأشير إليه ، قد بلغ من الكمال مبلغا عظيما لدرجة أنه صار نموذجا كاملا ، يمكن أن يتخذ مثالا ، يشبه به سواه ، فقد أفادت الكاف بلوغ المعنى تمامه .

وتأتى « كذلك » أيضا لتحقيق المعنى وتثبيته ، ولا يبدو فيها التشبيه ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « قالت : أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ، قال : كذلك ، قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » .

ومحاولة خلق تشبيه من هذه العبارة لا يؤدى إلا إلى التكلف والتفاهة معا . ويقدر بعض العلماء فى مثل هذا التركيب أن كذلك خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك ، ونحن نوافق على هذا التقدير وليس فى كذلك تشبيه هنا ، وإنما المراد : الأمر هو ما أخبرت به لا ريب فيه ، ومن « كذلك » هذه التى للتحقيق والتوكيد ، تولدت كلمة « كده » فى اللغة العامية للدلالة على التحقيق أيضا ، ونحن نستخدمها فى ذلك المعنى عند ما نقول : الحق كذلك ، تريد الحق والصواب هو ذلك ، ولعل السر فى المجىء بكاف التشبيه هنا هو بيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الكلامية ، أى أن ما يكون فى الواقع يطابق ما دل عليه الكلام .

وقيد « كذلك » التحقيق إذا كان هو ومدخولها جملة مستقلة كما فى الآيتين السالفتين وما على شاكلتها . وتفيد التحقيق وتأكيد الجملة فى غير هذا الموضع أيضا ، ويكثر ذلك عند ما يليها فعل ماض ، كما فى قوله تعالى : أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ، وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » ؛ فلا تجد للتشبيه موضعا فى هذه الآية ، وإذا أنت حاولته وجدته لا يغنى فى التصوير شيئا ، « وكذلك » هنا تؤدى معنى « قد » ولها أمثلة كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى : فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » ، وقوله تعالى : ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين » ، : « وقوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ، كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك » ، وربما جاءت افادتها للتحقيق من كثرة مجيئها لبيان التطابق فتنومى ذلك التطابق ، واستعملت فى لازم معناها الأصلى الذى تنومى .

واستعمال « كذلك » للتحقيق والتوكيد ، لا يقل عن استخدامها فى التشبيه ، وكثير من المفسرين يتكلف جعلها فى تلك المواضع أيضا للتشبيه ، فيتمحل ، ويمضى فى تأويلات لا نصيب لها من البلاغة ، وقوة الفن .

ومما ذكرناه يبدو أن تلك العبارة لا تقف عند حد التشبيه ، بل لها هذه المعانى الثلاثة التى شرحناها

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم